التاريخ العثماني بعيون "الآخر"

"Le tableau général de l'Empire Ottoman"
لـ *D'OHSSON, M*
أنموذجا

وهيبة قطوش*

جامعة الجزائر2 "أبو القاسم سعد الله"

مقدمة

يعتبر تاريخ الدولة العثمانية، من أهم المحطّات التاريخية التي عرفها العالم خلال فتراته الحديثة والمعاصرة بما حمله من وقائع و تطوّرات أحدثت تغيرات و تقلّبات هامة في موازين القوى، إن كان في أوربا أو العالم الإسلامي على حد سواء، بل إنّ انعكاساته أثّرت بشكل جذري وعميق على الساحة الدولية و العالمية أنداك.

وفي خضمّ ذالك الكمّ المتلاحق من الأحداث والوقائع التاريخية، ظهرت العديد من الكتابات والمؤلفات العربية والغربيّة التي تروي هذا التاريخ وتدوّنه في كل مرحلة ومع كل حدث و برؤى مختلفة في العديد من الجوانب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكريّة..

و يعتبر "مرادجه دهسن *D'OHSSON, M*" من الذين كتبوا عن تاريخ آل عثمان و إمبراطورتيهم، مستعرضا أهم أسس بناءها ومعرجا على بعض من مظاهر الحياة الاجتماعية و السياسية والدينيّة على وجه الخصوص فيها. هذه الإمبراطورية التي شهد لها "بالقوّة و العظمة" لما أحدثته من تغيرات عميقة على الخارطة "الجيو-سياسية" أنذاك.

لقد حمل كتاب " ***Le tableau général de l'Empire Ottoman*** " لصاحبه *" D'OHSSON, M"* مادة تاريخية هامة ومتنوعة تروي في سطورها وبين طيّات كلماتها الكثير عن نظام الدولة العثمانية المستقاة من الشريعة الاسلامية. هذا الكتاب الذي أهداه كاتبه الى ملك السويد لأهمية المادة التي احتواها. علما أن "مرادجه دهسن" عمل ملحقا دبلوماسيا و سكرتيرا أولا ومترجما للسفير السويدي في إسطنبول خلال القرن الثامن عشر، فكان معايشا ومزامنا للكثير من الوقائع والأحداث.

و بين "الحقيقة" التاريخية و الكتابة "الذاتية"، وبين الرؤية "الموضوعية" ورؤية "الآخر" سنجتهد في هذه المقالة في تقديم قراءة موضوعية لما جاء في هذا الكتاب، خاصة ما تعلّق بعلاقة المركز بالأطراف والاهتمام المبكّر للغربيين بتلك العلاقة.

نظرة عامة عن الكتاب

"أقدم لملك عظيم صورة عامة عن إمبراطورية عظيمة. فعلى ضفاف البوسفور، وتحت رعاية جلالتكم اضطلعت بهذا الكتاب.. تفضل سيدي، بقبول تحياتي العميقة، فتشجيعاتكم و طيبتكم ودعمكم هو ما جعلني أتحمّل مشاق هذا العمل".

هكذا بدأ "مردجة دهسن" كتابه عن تاريخ الإمبراطورية العثمانية مبديا الولاء لدولته معربا أنه خادمها الدائم، موضحا أن كل ذالك الحرص والجهد الذي ساير هذا العمل، ما كان لينجز بالشكل الذي أنتهى عليه، لولا دعم دولته له و تقديرها.

يقع *كتاب* ***tableau général de l'Empire Ottoman*** لمؤلفه "دسن"في سبعة (7) أجزاء.تناول كل جزء منها موضوعا خاصا، غير أنّ هذه المواضيع تتقاطع فيما بينها جميعا. أولا لأن المحور العام الذي تناولته هو

كيان الدولة العثمانية والنظام الاسلامي الشامل الذي تعتمد عليه في بناء مؤسساتها المختلفة، وثانيا أنها تطرّقت أيضا الى التاريخ العثماني منذ بدايته. هذا العمل الشاق الذي قال كاتبه أنه استغرق منه اثنين وعشرين عاما من البحث والجهد، والسهر وتحّمل الصعاب و التحديّات.

جاء حديث مراجه دهسن في هذا الكتاب، عن المجتمع العثماني الذي هو نسيج من المجتمع الإسلامي وكانه كتاب عن سيرة شعبية لبطل ما، هو المجتمع العثماني، الذي لازمه وعايشه و الان يحكيه في هذا الكتاب. اذ أصبحت مصطلحات و نمط عيش العثمانيين في مجتمعاتهم مألوفة لديه و يعمل على توضيحها لنا كسيرة شعبية تستوفي كل شروطها. "..ان الصور الاجتماعية، والوسط الذي يتحرك فيه أبطال السيرة الشعبية، والقيم والعادات والتقاليد التي تحكم سلوك أبطال السيرة يجب أن تكون مألوفة لدى جماهير السامعين. فالحرف والصنايع و أنواع الطعام، والنقود والأوزان والمكاييل، وطرز الملابس، وأنواع الحلوى، والألقاب والرتب التي يحملها الحكام وموظفو الدولة – كلها يجب أن تكون معروفة للسامعين حتى لا تتوه دلالاتها."[1]

دوافع تأليف الكتاب

أورد موردجه دهسن عدة أسباب كانت وراء كتابته لمؤلفه هذا لعّل أهمها:

- النقص الذي لاحظه في كتابات المؤرخين الآخرين رغم أهميتها، ومقارنته بينها الشيء الذي جعله يبحث عن الحقيقة.

---

[1]– قاسم عبده قاسم، **الحياة الاجتماعية في الولايات العثمانية اثناء العهد العثماني**، جمع وتقديم عبد الجليل التميمي، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية الموريسكية والتوثيق والمعلومات، الشركة التونسية للفنون الرسم، مارس، 1988، ص121.

- رغبته في تقديم العثمانيين للجمهور من خلال عقيدتهم و عاداتهم وتقاليدهم و فكرهم و الأهم من ذالك من خلال النظام الشامل الهام المسير من طرف "ابراهيم جلبي" المعروف بـــ. ابراهيم متفرقة[2] الذي أسس هذا النظام الديني لهذه الامبراطورية الشاسعة وكل الشعوب الإسلامية، انطلاقا من الشريعة المحمدية.
- خدمة أوربا المسيحية أمته الأصلّية. فقد أنشأ مؤسسة خاصة به يقوم فيها باستقبال العقود والسجلات لترجمها، هذا العمل الذي بقي يشرف عليه الى أن غادر القسطنطينية في *09* مارس *1784*. و قد كان بذالك يقدم لأوربا ما يصله من أسرار الامبراطورية العثمانية.[3] أي بطريقة أخرى فقد كان جاسوسا محترفا في الدولة العثمانية، وما اكتسبه من طيبة و ثقة الآخرين به كان لغرض أكبر و أقوى من المكارم والأمانة التي أوكلها المسئولون العثمانيون لديه لأنه استغلها في مأرب آخر.

العوامل التي ساعدته على انجاز الكتاب

ذكر الكاتب مجموعة من العوامل المختصرة لكن هامة جدا دفعته لكتابة هذا الكتاب أهمها:

- وظيفته الدبلوماسية التي تجعله قريب من "الباب العالي" ومراكز القرارات والحكم.
- علاقاته الشخصية مع المسؤولين في الدولة والضباط .

---

[2] .- *D'OHSSON, M : **Letableau général de l'Empire Ottoman,** imprimerie de Monsieur, Paris, tome 1, p,06.*

[3] – "..كنت من خلال مؤسستي أقوم بترجمة دفاترهم وأقدم لأوربا المسيحية نظرة عن القوة العثمانية". أنظر، ج1، ص، 8.

- تكوينه الشخصي و مواضبته على تثقيف نفسه و بناء شخصيته في محيط "الآخر"[4]
- الثقة الكبيرة والطيبة التي اتصف بها وجعلته قريبا من رجال الدولة والضباط والوزراء والتي جعلتهم يقدمون له نسخا من تقاريرهم و سجلاتهم[5]، التي استقى وانتقى منها الحقائق التي دونها في مؤلفه هذا والتي اعتبرها ذات مصداقية كبيرة اذ انها- على حد تعبيره- نتاج اثنين وعشرون سنة من الحرص والعمل.
- عمله كمترجم (وقد سبق شرح ذالك).
- تواصله مع النساء المسيحيات اللواتي خرجن من القصر بعد سنوات خدمتهن فيه، اذ يؤكد أنه من خلال معلوماتهن استطاع أن يصحح الأفكار الخاطئة التي اقتنع بها هو شخصيا فيما يخص السلاطين والحريم وسيدات القصر وخدمه وخاصة السلطان والكادين و الفتيات الأسيرات في السراي اللواتي يخرجن من السراي ويحصلن على حريتهن بعد سنوات من الخدمة فيه، فيتركن القصر الامبراطوري ليزوجن لمسؤولين وضباط في الدولة.

الكتاب

قسم موردجه دهسن مؤلفه ***tableau général de l'Empire Ottoman*** المتكّون من سبعة أجزاء الى قسمين أساسيين، جعل كل منها في كتاب خاص. فالقسم الأول من الدراسة يتناول موضوع "التشريعات

---

[4]- "يقول: كنت أدرس الكتب الأساسية في العقيدة و التشريع والنظام الاسلامي الشامل يساعدني في ذالك فقيه و مختص في علم الكلام متفقين جدا ومتمكنين جدا ومقدرين في الامبراطورية العثمانية. انظر نفس المصدر، ج1، ص،7.

[5] - أورد في حديثه عن السجلات أنها بين يديه وهو يكتب مؤلفه، نفسه، ج1. ص8.

المحمدية" وقد تضمنته الأجزاء الأربعة الأولى، بينما القسم الثاني منها فيتناول تاريخ الامبراطورية العثمانية.

وقد استهل المؤرّخ كتابه بتقديم جاء فيه أهمية كتابه وأمانته الكبيرة في نقل الأحداث و تدوينها كونه كان شاهدا على الكثير من الأحداث والوقائع التي جاءت فيه، إضافة أنه عاش في كنف الإمبراطورية العثمانية و بالتالي كان قريبا جدا من مواقع صنع القرارات فيها.

والملاحظ أن مورادجه دهسن قد استمتع كثيرا بكتابة مؤلفه انطلاقا من قناعته الشخصية أن صناعة الأمم متعة كبيرة "...عموما ليس هناك أكثر متعة من معرفة ولادة الأمم، تاريخهم، دينهم، عاداتهم وتقاليدهم، طبيعة حكمهم...هي أمور تجتذب رجال الدولة و تثير فضول الفلاسفة. "إن الأمة التي تقدّر نفسها تكون جديرة باهتمام العالم و تظهر على الساحة الدولية و تستاهل أن تكون معروفة لدى الدول المجاورة نظير العلاقات التي تربطها بهم"[6]. لكنه أعزى العلوم والمعرفة لاوربا المسيحية، وأكد على أنها كانت طريقا للتنوير والنهضة الفكرية والتطوّر.[7]"إننا نقدّر الجهود الكبيرة والسريعة التي بذلتها أوربا المسيحية في كل مجالات العلوم، فأنارت العصور بمعرفتها وساهمت في تطوير العقول في مختلف الحقبات التاريخية"[8]

كما أوضح الكاتب أن أوربا تفتقد المعرفة الحقيقية بالإمبراطورية العثمانية، فما تعرفه عنها لا يتعدى شساعة مساحتها وامتدادها الجغرافي.

---

[6]- المصدر نفسه، ج1، ص1.

[7]- عمل العديد من الكتاب والمؤرخين الى الترويج لفكرة أن الدولة العثمانية انتعشت وتطورت نتيجة ذالك الاحتكاك بالدول الغربية وهذا ما ذهب اليه دولامارتين حينما قال"بفعل احتكاكها بالغرب، تحضرت الإمبراطورية العثمانية و تأوربت و تجدد شبابها.

أنظر: *DE LA MARTINE: **Histoire de la Turquie**, Paris, 1868. ,p9.*

[8]- دهسن، المصدر نفسه، ، ص1و2.

فهي تعرفها خارجيا وليس من الداخل أي معرفتها سطحية ولا تملك معرفة عميقة عنها، فهي تجهل مكوناتها السياسية وأسس بنائها... هي تجهل"الينابيع" التي اينعت وأنبتت هذه" الماكنة العظيمة". فأوروبا حسب مراجه دهسن – والى هذه الفترة– لم تتعمق في نظرتها للإمبراطورية العثمانية، و تستفيد من الخطأ والأوهام، فبقيت نظرتها سطحية و بعيدة عن الحقيقة."لقد تشبثنا بالتأثيرات فقط و ابتعدنا عن الأسباب و لم نتعمق فيها."[9]

ويضيف قائلا: في الواقع، إنه من الصعوبة أن نجلي السحب الكثيفة التي تلّف هذه الأمة القليلة الاحتكاك والتواصل، فهي تبني بينها وبين الشعوب الأوربية حاجزا من الأحكام الدينية المسبقة التي زادتها الظروف الطبيعية والسياسية والمعنوية متانة وصلابة.

كما يورد المؤلف شروطا أساسية لكتابة تاريخ دولة ما، كالعيش في محيط واحد، و معرفة اللغة... فيؤكد أنّ مواصفات كثيرة تتقاطع لديه تجعل من كتابه ذا مصداقية كبيرة وأمانة عالية. فهو ولد في القسطنطينية و نشئ بها،[10] وبقي فيها الى سنة 1784. تثقف خارج اوربا المسيحية، وعايش المجتمع العثماني وكان قريبا منه ومن مؤسساته و هياكله الادارية، كما استفاد من علاقاته الشخصية بالسفراء والدبلوماسيين والضباط والمسؤولين. وهذا تطلب منه الكثير من الجهود و المخاطر.[11]

---

[9]– نفسه، ج ، ص2 و3.

[10]– "لقد أمضيت كل حياتي في خدمة ساحة ترتبط بالباب العالي بعلاقات حميمية. كان لي أكثر من أي شخص وسائل مجابهة صعوبات واتمام العمل الذي أقوم به اليوم" أنظر،المصدر السابق، ج1، ص5.

[11]– "...الجميع يعرف مدى ما نجابهه من مخاطر وصعوبات حينما نسخر أنفسنا للبحث في أعماق تقارير هذه الأمّة.. انظر ج1، ص5.

يؤكد مورادجه دسن على أن هذه الدراسة استلزمت منه الكثير من القدرات والوسائل. كاللغة و طبيعة التعامل وحدوده، وايضا الكثير من العلاقات الشخصية الهامة في مختلف قطاعات الدولة، والتواجد السياسي واكتساب اليات السياسة ومفاتيحها والبعد عن كل توجّس أوعلاقات أخرى قد تشيبها نوع من الغموض او الاستفهام لدى المسؤولين والوزراء أو الضباط الذين سيؤمنون الحماية الأمينة "ومن غير هذا لن نستطيع الوصول الى المعارف الحقيقية لهذا الشعب وحكومته.[12]"

جاء الجزء الأول في *431* صفحة وتناول القسم العقائدي في الدولة العثمانية، وتمحورت أهم مواضيعه حول المذاهب الإسلامية الأربعة (الحنفي، الشافعي، المالكي، الحنبلي) وتعرض الى أهم الاختلافات بينها. ثم عن القران الكريم، الشريعة المحمدية، الجنة والنار، الاسلام، الايمان، القضاء والقدر، الانبياء والرسل، العشرة المبشرين، الثقة بالله، أخلاق الرسول محمد عليه الصلاة والسلام وغيرها من المواضيع ذات الصلة.

و جاء الجزء الثاني في*573*صفحة. تناول فيه المحاور الأساسية التالية وفصّل فيها بشكل كبير:الطهارة، الصلاة (فرائضها، مبطلاتها، أنواعها، مواقيتها،...) الاذان، الأدعيةالزكاة (أهميتها، أنواعها، شروطها...)، الصدقة، الجوامع، اللغة، المدارس، المكتبات، الفنادق، الأضرحة والمقابر، الوقف.

أما الجزء الثالث فقد شمل 426 صفحة وقسمه المؤلف الى أربعة فصول. تناول في الفصل الأول فريضة الصيام بصفة عامة: و تحدث فيه بشكل مفسر متعرضا لأركانه و شروطه.

وتحدث في الفصل الثاني عن مبطلات الصوم ومكروهاته، والتي تلزم على صاحبها كفارة او ترضية(الجزاء)، وذالك بحسب نوع الخطأ وطبيعته.

---

[12]- نفسه، ص،5.

فان كانت الاولى فتوجب إمّا صيام ستون يوما أوتحرير رقبة أو اطعام ستين مسكينا.أما الخطأ أو الاكراه فيوجب الثانية بإعادة صوم ذالك اليوم...

الفصل الثالث تناول بالدراسة الفئات المعفاة من الصيام في شهر رمضان، بينما تعرض في الفصل الرابع الى معنى الاعتكاف والتفرغ الروحي التام للعبادة في الأيام العشر الأواخر للشهر رمضان المبارك. ليتحدث بعد ذالك بإسهاب عن فريضة الحج ومعانيه ومقاصده الروحية و طريقة أدائه ومناسكه وواجباته ومبطلاته واقسامه. وقد تعرض ايضا في هذا الفصل لموضوع العمرة.

وابتداء من الصفحة 139 وبعد نهاية حديثه عن الحج والعمرة، تطرق في خضم ملاحظاته لأصل العرب وتاريخ بناء الكعبة الشريفة (الكعبة قبل الاسلام وبعده).

الجزء الرابع من الكتاب، جاء في 762 صفحة، تناول فيه الكاتب المجتمع العثماني في كل ما له علاقة بالغذاء(المؤونة) اللباس، العمل، والاخلاق الحميدة، مفصلا في كل محور بشكل كبير مستندا للشريعة الاسلامية وما تستوجب على المؤمنين والملتزمين.

وقد جاء الجزء الخامس في *319* صفحة، قسّم الى قسمين أساسيين:الأول تحدث فيه عن التشريعات السياسية والعسكرية والمدنية والقانونية وكذا الواجبات والعقوبات التي تفرضها الشريعة المحمدية، والقسم الثاني عن أوضاع الإمبراطورية العثمانية. وقد تضمن هيكلا مهما عن تأسيس الامبراطورية العثمانية.

كما نجد أن الكاتب اهتم كثيرا بالتشريع المدني في النظام الإسلامي. تناول فيه بالدراسة موضوع الزواج والطلاق وحقوق الزوجين وواجباتهما،

كما تحدث في مبحث آخر عن حضانة الأطفال وحقوقهم، وعن القوامة الأبوية، كما تحدث فيه أيضا عن الجنائز والميراث.

الجزء السادس جاء في 344 صفحة، قسمه موراجة دهسن الى عشرة كتب (فصول)، تناول فيها بالدراسة عدة مواضيع أساسية لعل أهمها:الخدمة الشخصية،والمقصود بهاقضية الرّق(العبيد) في الامبراطورية العثمانية، سلطة الأسياد على عبيدهم، حقوق السيد على جواريه، حقوق السيد على عبيده الجدد، الحقوق المتبادلة، قضية فرار العبيد.

كما كتب فيه هذا الجزء عن العديد من المجالات التي لها علاقة بالجانب التجاري للامبراطورية العثمانية، كالبيع والشراء وما تعلّق بالتشريعات والقوانين التي تضبط هاتين العمليتين (البيع والشراء)، مثل التعيينات ومسائل القروض والدَيون، وكذالك في قضايا الربح غير المشروع...

الكتاب الثامن من هذا الجزء، تحدّث فيه مرادجه دسن عن مختلف القوانين التي لها علاقة بالأشخاص، فيما يسير ويؤطّر العلاقات الطبيعية بينهم، كالحضر. المدني وموضوع المفقودين، والمعتقين الجدد للإسلام. بالإضافة الى قوانين الملكيَة التي تضبط الأمور الخاصة بالممتلكات الفردية والجماعية لدى الشعوب الإسلامية في إطار الشريعة المحمدية. كما تعرّض أيضا الى موضوع الأراضي الغير مستغلة والايجار، واستئجار العبيد والحيوانات الأليفة، وموضوع أجور الحرفيّين والعمال، وتقسيم المنافع والمحاصيل المشتركة...

وبعد هذا انتقل الكاتب للحديث والتفصيل في قضايا التشريع القانوني. كالعدالة، وصفات القاضي، حقوقه وواجباته، الإجراءات والأحكام القضائية،

التصريحات المتناقضة للشهود والمتهمين، الشهادة القضائية، القسم و الأحكام...

أمّا في مبحث قانون العقوبات، فأهم المواضيع التي تحدث عنها كانت فيما يخص العقوبات المتعلقة بالجرائم ضد الدولة كالعصيان والاعتداءات، الإصابات والتشويهات، الشتائم، الزنا، شهادة الزور، السكر، السرقات المشتركة في الطرق العامة، وكذا الجرائم التي يرتكبها العبيد أو ترتكب في حقهم.

كما تحدث عن العقوبات الإصلاحية والإصلاحات المدنية أيضا وفصل في العديد من القضايا المتعلقة بها.

أما الجزء السابع من الكتاب وهو الجزء الأخير، فقد جعله مراجه دهسن في تسعة كتب خصصها لقضايا القصر ومختلف جوانبه، كالسراي وموظفيه، السلطان، الأغوات، العلماء، الضباط، حراس القصر والحراس الشخصيين، العمال داخل البلاط، الحريم الامبراطوري، السلطانة الام، السلاطين، الخانم سلطانة، أمراء العرش، أمراء الدم.. كما تحدث بكثير من التفصيل عن الوزير الأعظم ومؤسسته، ثم عن الاعمال والوظائف السنوية في الدولة، والديوان، الخزينة والسياسة المالية للإمبراطورية، كتب أيضا عن أقاليم الدولة العثمانية وركّز على الأناضول والروملي بشكل عام. تحدث أيضا عن وضع الأجانب في بلاد المسلمين. كما تعرض للوضع العسكري، وتناول فيه قضايا الحرب والأسرى والمتمردين والقضايا ذات الصلة. وعند حديثه عن البحرية تعرض الى موضوع الانكشارية والعسكر حاملي لاسلحة، الطوباجي، الصبايحية، السلحدار وغيرها من الفرق العسكرية، عن البيت العسكري وفرق الزعامات والتمار..وكان آخر موضوع في

الجزء الأخير هذا من الكتاب هو العلاقات العثمانية مع القوى الخارجية، خاصة مع فرنسا وروسيا.

علاقة المركز بالأطراف

صحيح أن الكاتب لم يتعرض بالدراسة المفصلة والدقيقة لعلاقة الدولة العثمانية بأقاليمها الأخرى بشكل مباشر، إلا أنه كثيرا ما كان يشير إلى ذالك، عندما يتطرق لموضوع يستلزم فيه على الكاتب تقديم أمثلة أو إشارات لطبيعة تعامل السلطة المركزية العثمانية مع الدول الأخرى، أو مع باقي أقاليمها حتى تكون رؤاه مقنعة و كلامه مؤسّسا.

لقد تناول الكتاب بعض من علاقة المركز بالأطراف، في حديثه عن الشعائر الاسلامية كالصيام والحج والعمرة وغيرها. فكثيرا ما تكلم عن تلك التجهيزات والإجراءات المميّزة التي كان يتخذها السلاطين العثمانيون من أجل السّير الحسن لمواكب الحج والعمرة وحتى في إقامة موائد الفطور أثناء أيام الصيام، أو أفراح العيد وأموال الزكاة والصدقة و مظاهر الاحتفال بالمولد النبوي الشريف.

فمن ذالك ذكره أنه في أيام الاحتفال بعيد الفطر المبارك، تصدر أوامر في كامل تراب الامبراطورية بمراقبة وغلق كل الحانات، وتقوم دوريات خاصة بالسهر على سريان الأوامر. وهو الإجراء الذي لا يخص حارات المسلمين فقط بل يخص الحارات التي يسكنها المسيحيون أيضا، وذالك حفظا للأمن وسلامة الناس. فتمر أيام العيد بهدوء وسلام (في رأيي أن الأمر نفسه في باقي الاعياد الدينية).[13] ويجب التوضيح أن تعميم الاجراء على كل

[13]– صحيح أن الخمر ممنوع في سائر الأيام، لكن مراقبتها شديدة خاصة في تلك الفترة " وهكذا تمر احتفالات المسلمين في هدوء وراحة لتمثل بذالك لوحة مختلفة عن المدن الاوربية الكبرى ذات الجدية المسيحية. انظر، ج2 ص 573.

حارات الامبراطورية من غير المسلمين ليس اجحافا في حق الرعايا الأجانب أو الملل[14] الأخرى التي كانت تحظى بالكثير من الامتيازات في الامبراطورية العثمانية، وإنما كما أكد عليه الكاتب تفاديا لأيّة مظاهر تعكّر جوّ الاحتفالات. فلقد كان "نطاق الدولة العثمانية نطاق مجتمعات مركبة من أديان وأقوام ومذاهب"[15].

و الملاحظ أيضا أن مراجه دهسن، عندما تحدث عن الركن الخامس من الشريعة الاسلامية وهو الحج، تطرق الى الكثير من النقاط التي أوضحت اهتمام المركز بالأطراف، كذكره –مثلا وليس حصرا– للهبات والمساعدات التي كان يقدمها السلاطين العثمانيون للمدينة المنورة ومكة المكرمة استعدادا لموسم الحج المبارك وتفانيا في خدمة بيت الله الحرام والأماكن المقدسة، وتسهيلا للمسلمين لأداء مناسكهم خلال هذا الموسم. ومنها تحسين وصيانة الطرقات من القسطنطينية الى مكة المكرمة، ومن دمشق الى المدينة المقدسة.." وكذا معاينة لآبار المياه واصلاحها و حفر عدد منها وكذا مخازن المؤونة[16].

ومن ذالك أيضا ما يبينها الكاتب في خضم حديثه عن استعدادات المسلمين في الامبراطورية العثمانية لموسم الحج، عن طريق وصف عدد من الإجراءات والتدابير والأعمال النى كانت تزداد وتظهر استثنائيا في كل

---

[14] – سنّت الدولة العثمانية قانون الملّل الذي جعل ال رعايا الأجانب تحت حماية الباب العالي يتمتعون بامتيازات كثيرة جعلت منهم ملاّك وحرفين وتجار كبار. أنظر، عبد الرحيم مصطفى، **في أصول التاريخ العثماني**، دارالشروق، بيروت، لبنان، ط2، 1993، ص95.

[15] –وجيه كوثراني، **السلطة والمجتمع والعمل السياسي في بلاد الشام**، مركز الدراسات العربية، ص67.

[16] –هكذا جاء في الجزء الثالث من كتاب "دسن"،ص 257. 258.

موسم من مواسم الحج و كأنها أصبحت عادة حتمية حميدة في العديد من المجتمعات العثمانية، رغم أن جل الأمثلة والنماذج كانت عن اسطنبول ومنطقة الحجاز ومكة بوجه الخصوص كونها محجّ الجميع ومكان التقائهم.

وقد ذكر مرجه دهسن أيضا أنّ السلاطين العثمانيين كانوا يجتهدون في الاهتمام بمنطقة شبه الجزيرة العربية حاضنة المسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة و بيت الله الحرام بمكة المكرمة، وكانوا يقدمون الكثير من الاهتمام لها فلقد "كان سلاطين الأسرة العثمانية الأوائل لا يتوانون عن تقديم الهدايا الثمينة والهائلة لمكة المكرمة.فالسلطان بايزيد الثاني كان يرسل أربعة عشرة ألفدوقة الى مكة كل عيد أضحى،كما رفع السلطان سليم الأوّل هبات أحياء المنطقة الى مائتي ألف نقدا[17] وقد كانت هذه الهدايا والهبات تقدم من خراجات مصر التي ترسل الى مكة في الجزيرة العربية فتصل الى خمسة ألاف اوقجة من القمح والأرز لمكة و ألفين للمدينة.[18]

كما أورد صورة أخرى للأهمية الكبرى التي يوليها السلاطين العثمانيين للجزيرة العربية وبالأخص مكة والمدينة. فقد قال أن السلطان محمد الأوّل عندما كان يسافر إلى الجزيرة العربية، كان يوزع الذهب والفضة وأكثر من خمسين ألف قفطان إمّا في مكّة أو في المدينة. و هذه ليست الأموال الوحيدة التي ينفقها سلاطين الدولة العثمانية على الصالح العام وإنما لعب الوقف أيضا دورا كبيرا في ذالك عن طريق المنشآت الكثيرة التي يقيمها السلاطين وسيدات القصر والوزراء العثمانيين التي تسخّر كلها لخدمة الفقراء والمحتاجين.[19]

---

[17]– المصدر نفسه، ج3، ص 258.

[18]– نفسه، ج3 ص 260.

[19]– نفسه، ج3 ص 261. 262.

ويتابع الكاتب شهادته على اهتمام بعض من السلاطين العثمانيين بالحرمين الشريفين و تفنّنهم في تزينيها بأبهى الحلل فيقول:" لا شيء يعادل ما قدمه سليم الأول وسليمان الأول[20] من هدايا وعطاءات. وقد أرسل السلطان مراد الثالث مصباحين كبيرين من الذهب الخالص مرصعّين بأحجار كريمة، كما أحاط السلطان أحمد الأوّل الأضرحة بعدة اطارات ذهبية وفضية.[21]

ولم تنحصر هذه الهبات والهدايا على السلاطين فقط. فقد عملت سيدات القصر(الكادين) و الأميرات أيضا على وضع بصمات لهن في بيت الله الحرام. ومن ذالك ما جاء في الكتاب عن أن "خاسكي سلطانة" زوجة السلطان سليمان الأوّل رفعت العديد من خزانات المياه ليشرب منها الحجاج الوافدين من مختلف طرق المدينة. وأنشأت ابنته الأميرة "ميهرمانة سلطانة" عين "عرفة" التي توفر المياه اللازمة لعرفة و محيطها. كما أنشئ السلطان سليمان منبع السبيل على جانب المروة ووسّع الحوضين القائمين بين الصفا والتربة الشريفة.ولميدخر السلطان محمد السادس كذالك جهدا في تجنيب مكة سنة 1682م، الكارثة التي كادت أن تشملها والتي قضت على الكثير من سكان المناطق المحيطة بها وجرفت منازلهم.[22]

أمّا عن الصوم العشر الاواخر فيذكر الكاتب بأنّ السلطان بايزيد الثاني الذي كان ذو تقوى مثالية كان يقضي العشر الأواخر من رمضان في العبادة

---

[20]- كانت هناك عدة أحواض ومصبات للمياه في خدمة الحجاج الوافدين، فمصبات الشام (شام بركاسي) كانت موجهة للحجاج القادمين من الشام تحت امرة باشا دمشق، و مصبات مصر (ميصير بركاسي) للحجاج الوافدين من مصر تحت امرة باشا مصر والباقي لافريقيا. أنظر، ج3 ص 216.

[21]- ج3 ص 213.

[22]- ج3 ص 215. 216.

و في أغلب الأحيان بمعيّة الشيخ محي الدين ياووز والد الشيخ المفتي المشهور أبو السعود افندي.[23]

و نجد أنّ حديثه عن علاقة الدولة العثمانية بالأطراف أو بأقاليمها تركّز خاصة عند تعرضه في الجزء السابع الى تكوين الإمبراطورية العثمانية في حد ذاتها من خلال عرض مخصص للأقاليم العثمانية. فيتحدث عن طبيعة تعامل الدولة العثمانية مع هذه الأقاليم ابتداءا من البلدان" المستعمرة" كما جاء في كتابه. فيوضح أن تملّك العثمانيين لهذه الاراضي تستثنيها ضريبة الخراج التي تفرض على المسيحيين و أن منبعها الشريعة المحمدية، ويذكر أقساما أربعة للملكية (أرض الخراجية- أرض العشرية - أرض مملكة- أرض الحفظ أورقابة بيت المال).[24]

كما توزع الأراضي حسب الزعامات أو التيمار،كما يتم تطبيق ذالك عن طريق الوظائف المختلفة كـــ. الصبايحي، السوباشي، السنجاق باي، وكانوا يمارسون دور الشرطة في الأقليم تحت سلطة قائدهم. كما يبين أن لمصر وضع خاص في الهيكل الاداري وتشريعاته، بحيث يجمع الحاكم بين السلطة العسكرية والسلطة المدنية.[25]

ويذكر مراجه دهسن أنّ السلطان مراد الثالث هو الذي قسّم الإمبراطورية العثمانية الى إيالات كبيرة تتكون كل منها من عدة ألوية. ويمنح لكل حاكم عام فيها لقب (وزير) و(باشا).[26]هؤولاء الذين لايبقون في الحكم الا لمدة محدودة حتى لا يتقّووا من خلال بقائهم في المنصب كثيرا و

---

[23]- ، ج3 ، ص31.32.

[24]- ج7، ص 274.275.

[25]- ج7 ص 283.

[26]- ج7 ص 277.

ممارستهم السلطة في نفس الإقليم. فيحكمون أولا لمدة ثلاث سنوات، ثم لسنتين وفي الأخير لعام واحد.

لقد كانت كل التقارير الخاصة بالأقاليم توجه الى "الوزير الاعظم" الذي هو الوحيد المخول بتقديم عرض خاص بها للسلطان في كل الاعمال والمجالات والقضايا على حسب خصوصيتها كان يطلق عليها "التقرير[27] أو التلخيص"[28].

تعرّض أيضا الى الأوضاع المالية للإمبراطورية من حيث ايرادات وعائدات الخزينة أو ما يعرف بـــ"السياسة المالية" الخاصة بالدولة العثمانية. فتحدث عن مصادر الخزينة العثمانية ابتداءا من الضرائب المفروضة تشريعيا، ثم انتقل الى شرح الضرائب التي فرضتها أو أوجدتها الامبراطورية لتحقيق الاكتفاء المالي لها نظير شساعة امتدادها و استلزامات احتياجاتها كدولة أولى وكبرى. فذكر الكاتب أن الضرائب الشرعيّة المفروضة على الشعوب لم تكن تفي وتكفي الإمبراطورية العثمانية التي لجأت الى فرض ضرائب أخرى جديدة. ففرضت حقوق على عدة بضائع تجارية عند دخولها أو خروجها تحت أسماء: ميزان- عمد- باج- النظام الجديد. فالإمبراطورية العثمانية وهي في أوّج امتدادها وسلطانها اشتملت على 44 إيالة و220 لواء.[29] وقد كان لواء البوسنة والمورة من أهّم ثلاث ألوية في الامبراطورية. فقد كانت تؤجر كل سنة لحكامها لعامين نظير مبلغ يدفعونه للدولة مقابل حريتهم في التصرّف في محاصيلها.[30]

---

[27]- يطلق التقرير ايضا في بعض الحالات و الظروف على رسائل التهنئة و التعازي

[28]- ج7 ص 136.

[29] - ج7 ص277.

[30]- ج7 ص 280.

ذكر الكاتب أنه خلال فتح السلطان سليم الاول لسوريا عام 1516م، امضى الشتاء في دمشق ولم يرد المغادرة الا بعد زيارة القدس الشريف. زار مدينة القدس رفقة عدد محدود من الضباط وذهب مباشرة الى أضرحة الأنبياء (ابراهيم، اسحاق، يعقوب، ويوسف) عليهم السلام جميعا في جو ماطر جدا، و هذا يبين لنا احترام وتقدير السلطان سليم الاول لقدسية المكان و ارتباطه الروحي الديني بالأماكن المقدسة، وقد يكون ذالك اشارة رغبة من السلطان سليم الاول في طمأنة الشعوب الاسلامية في المنطقة بأنه رجل سلم وما حملته على سوريا وبعدها مصر الا لإنقاذ المسلمين من الاوضاع المزرية من ظلم و فقر و اضطهاد التي عايشهم فيها المماليك و كتأديب لهم ورفع الظلم عنهم لا غير[31].

ومن القراءات التي يمكننا استنتاجها في هذا الكتاب حول طبيعة علاقة الدولة العثمانية بأقاليمها المختلفة، تلك الصورة التي أوردها مراجه دهسن عن السلطان سليم الأولّ حينما اراد ان يرتحل من سوريا متوجها بجيشه في حملته على القاهرة، أنه لم يستعجل المغادرة و إنّما أبى قبلها إلا أن يتعّرف على مشايخ المنطقة وأئمتها والجلوس إليهم وأخذ بركاتهم ودعواتهم. ومن ذالك أنّه قصد أحد المشايخ واسمه "محمد البيداخشي" و كان يسكن بالقرب من مسجد بني أمية، فزاره السلطان سليم الاول وجلس اليه. والملاحظ أنه من شدة تقديره واحترامه للائمة والمشايخ والعلماء، بقي صامتا دون أن يتجرأ ان يبدأ بالحديث الى الشيخ احتراما وتبجيلا له. وكذا كان موقف الشيخ الجليل الذي بقي صامتا في حضرة السلطان، الى أن قطع أحد مرافقي السلطان ذالك الصمت، مما أخجل السلطان وراح يرجو الشيخ بالدعاء له و أن يبارك الله له أعماله، ففعل الشيخ ذالك وأضفى عليه من النصح والتوجيه

مذكرا اياه بضرورة اللطف بالعباد وكثرة التقرب منه والسير على طريق الخير. وبعد أن أخذ بركات الشيخ ودعواته توجه السلطان سليم الأول بكل قوّة وثقة في حملته على مصر.[32]

نجد أيضا في الجزء الذي يتحدث فيه الكاتب عن موضوع الأقاليم، أنّ هناك ذكر مركزّ لعدد من أقاليم الامبراطورية العثمانية إن كان في الروملّلي أو الأناضول عند حديثه عن طبيعة تعامل الامبراطورية مع أقاليمها. فأعطى أمثلة عن ديار بكر وجزيرة رودس وقاليبولي وجزيرة قبرص وكان ذالك خاصة في حديثه عن موضوع الإيالات والألوية.

أمّا ما جاء عن الجزائر في هذا الكتاب، هو ما تضمّنته المادة الخامسة من المعاهدة[33] التي أبرمتها فرنسا مع الإمبراطورية العثمانية سنة 1597م، في عهد السلطان محمّد الثالث بجهود"سفري دو بريف*Savary de Brèves*" سفير "هانري السادس"، التي تنّص على التزام "الكانتونات البربرية" (على حد تعبيره) باحترام الأجنحة البحرية الفرنسية، واعادة ما أخذ منها من طرف قراصنتها.[34] هذه المعاهدة التي تضمّنت العديد من البنود التي تخدم فرنسا بالدرجة الأساسية. يقول الكاتب مصورا و مؤكدا على العلاقات الوثيقة والعميقة بين فرنسا والدولة العثمانية "...لم يتوقف العثمانيون أبدا من النظر الى الفرنسيين على أنهم أقدم و احسن أصدقاء لهم".[35]

كانت للجزائر مكانة هامة في البحر المتوسط، وكانت تعتبر احدى القوات التي يحسب لها الكثير قبل أي تفكير في تجاوزها. وقد أكد هذه

---

[32]- ج1 ص 309،310.

[33]- قال الكاتب أنها المعاهدة الرابعة بين فرنسا والامبراطورية العثمانية.

[34]- نفسه، ج7، ص، 475.

[35]- نفسه، ج7، ص، 478.

المكانة "ويليم سبنسر حين قال "ان مدينة الجزائر كعاصمة لدولة مستقرة قوية في شمال افريقيا، قد مثّلت ومعها تونس وطرابلس، القوّة الاسلامية العثمانية القاطعة المنهمكة في مصارعة الصليبية كالشفرة الحادة النافذة بعمق في العالم الاسلامي."[36] ولمّا كانت لفرنسا أطماع كثيرة في الجزائر، كانت تجعل لنفسها طرقا كثيرة لتحقق مآربها فيها نتيجة ما تتمتع به الجزائر من موقع استراتيجي و منافع طبيعية كثيرة -ليس المجال هنا لذكرها-ومما ذكره مرادجة دهسن، أنه في عام 1604م تحصّل نفس السفير الفرنسي " *Savary de Brèves* في عهد السلطان أحمد الأوّل على المعاهدة الخامسة- لصالح فرنسا تخوّل لها حرية دخول الجزائر واصطياد المرجان في السواحل البربرية وكذا حرية استقبال فرنسا للمرجان الجزائري.[37]

الاهتمام المبكر للغربيين بعلاقة المركز بالأطراف

على الرغم من أن هذا الكتاب بكل أجزائه قدّم لنا صورة مهمة جدا بوقائع محدّدة و أحداث مبرّرة في تاريخ الدولة العثمانية، كون صاحبه شاهد عيان عليها وعايشها في مختلف فتراتها، وكان قريبا من مؤسسات الإدارة و مقربا للكثير من الوزراء والضباط ومحل ثقتهم، بحيث نستطيع معرفة الكثير عن تاريخ الامبراطورية العثمانية، قد لا يكون مكتوبا ومذكورا في مؤلفات سابقة ومصادر سبقته في الكتابة عن تاريخ هذه الامبراطورية، أو قد تكون تغافلت عن بعض جزئيات الحدث أو الحدث نفسه. الاّ أنه يوضح مدى اهتمام الغرب بالكتابة عن هذه الامبراطورية، بعدما اتقنوا التعامل مع مختلف حكّامها ومسيريها واستطاعوا الولوج في مكنوناتها والتغلغل في أوساطها

---

[36]- مولود قاسم نايت بلقاسم: **شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830**، الجزء2، ط1، دار البعث، الجزائر، ص339.

[37]- ج7 ص 475.

وأعلى مؤسساتها المدنية والعسكرية وبالتالي الوصول إلى الكثير من تفاصيلها التي هي بمثابة السرّ والأحجية التي عجزوا طويلا في حلها عن أسس بناء هذه الامبراطورية التي كانت في يوم من الأيام قبيلة فإمارة فدولة، لتصبح بعدها أقوى وأوسع امبراطورية عرفها التاريخ الحديث.

ويصرّح الكاتب أيضا، أن عمله لم يكن بالسهل ولا بالعفوي. فبعدما كسب ثقة الكثير من المسؤولين والوزراء.. و تمكن من دخول مكاتبهم بكل سهولة، أن ثقتهم فيه كانت كبيرة الى درجة أنّ سجلاتهم ودفاترهم وهو يكتب هذا الكتاب كانت بين يديه، ولم يخفي أنه من خلال دراسة تلك السجلات كان ينقل الكثير من المعلومات الهامة لأروبا حتى تعرف أسرار الامبراطورية العثمانية وبهذا تتّمكن من استغلال كل تلك المعلومات لصالحها.[38] وما تنافس الدول الأوربية على كسب الامتيازات[39] في مختلف أقاليم الامبراطورية العثمانية الا دليل آخر، وسبب لاهتمامهم بدراسة أدّق التفاصيل عن علاقة الامبراطورية بالبلدان المنطوية تحت سلطتها، علّها تجد لها مدخلا لاستغلال ثرواتها أولا، ثم السيطرة عليها بعد ذالك.

خلاصة

تعددت الكتابات عن تاريخ الامبراطورية العثمانية، واختلفت معها دوافع تلك الكتابات وأهدافها. وجاء كتاب المؤرخ "مورادجة دهسن"ليعبر عن نظرة أخرى وأسلوب آخر في كتابة التاريخ العثماني، انطلاقا من أرضية

---

[38]- ج1 ص8.

[39] -لقد كانت فرنسا أوّل مملكة غربية تحصل على امتيازات تشمل كل الإمبراطورية العثمانية...وفيما بعد أصبحت هذه الامتيازات نموذجا لاتفاقيات مماثلة مع انكلترا وهولندا وغيرها من الدوّل. أنظر خليل إينالجيك:**الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار**، تر، م.الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي، بيروت، تنط1،2002. ص 213.

وضعها لنفسه، أساسها الاهتمام بالكتابة عن أقاليم الدولة العثمانية وعلاقاتها بمراكز السلطة فيها، اعتمادا على المعرفة والاحتكاك المباشر والدائم بالمجتمع والسلطة العثمانية، التي كان يؤكد عليها من الصفحات الأولى لكتابه، نظير المدة الطويلة التي قضاها في ديار الامبراطورية العثمانية.

لكن كيفما كان أسلوب التأريخ التي اعتمدها الكاتب هنا، وكيفما اجتهد ونجح في الكتابة عن نظام حياة المجتمع العثماني، المستمد من الشريعة المحمدية، ونمط معيشته، بالتعرّض الى مختلف الميادين السياسية، والاجتماعية والدينية والاقتصادية فيه... الاّ أنه في زاوية ما، بقي دخيلا على المجتمع العثماني متطفلا عليه. فلم يكن في الواقع تلك الشخصية التي استمالت موظفي الدولة، والتي وثقت فيها جميع الأطياف التي تعاملت معها وكسبت ودّها، لأنه في الحقيقة العميقة كان يستغل تلك المكتسبات المعنوية، وكل مؤهلاته، لتقديم كل ما يخص الامبراطورية العثمانية لتستفيد منه أوربا، التي ما فتئت تخطط للقضاء عليها، تارة باختلاق الأزمات في داخلها، وأخرىبزعزعة استقرار أقاليمها بعدما تكون قد درست مكامن القوّة والضعف في كل إقليم منها. فللأسف قد نجحت "الدبلوماسية الأوربية على نحو فعال في استغلال المشكلات الداخلية للإمبراطورية العثمانية في تحقيق أهدافها وما لبثت حدة التناقضات بين الدول الأوربية وتركيا أن اشتدت في عشرينيات القرن التاسع عشر"[40]

ويبقى أن هذا الكتاب استطاع أن يقدّم لنا و لوبشكل محدود (من حيث المكان والزمان)، صورة مهمّة عن اهتمام السلاطين العثمانيين بأقاليم الإمبراطورية، وعن طبيعة العلاقة بين مركز الحكم فيها بباقي الأطراف.

---

[40] -نينلالكسندروفنا دولينا:**الإمبراطورية العثمانية وعلاقتها الدولية في عشرينيات وثلاثينيات القرن التاسع عشر**، ترجمة أنور محمد إبراهيم،المجلس الأعلى للثقافة، ط 1999، ص25.

بيبلوغرافيا

/العربيـــــــــــة

- خليل إينالجيك، **الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار**، تر، م.الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1،2002.
- عبد الرحيم مصطفى أحمد، **في أصول التاريخ العثماني**، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط2، 1993.
- قاسم عبده قاسم، **السيرة الشعبية مصدر من مصادر التاريخ الإجتماعي**، بحوث مؤتمر الحياة الاجتماعية في الولايات العثمانية اثناء العهد العثماني، جمع وتقديم عبد الجليل التميمي، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية الموريسكية والتوثيق والمعلومات، الشركة التونسية للفنون الرسم، مارس، 1988.
- مولود قاسم نايت بلقاسم، **شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830**، الجزء2، ط1، دار البعث، الجزائر
- نيلاالكسندروفنا دولينا، **الإمبراطورية العثمانية وعلاقتها الدولية في عشرينيات وثلاثينيات القرن التاسع عشر**، ترجمة أنور محمد إبراهيم،المجلس الأعلى للثقافة، ط 1999.
- وجيه كوثراني، **السلطة والمجتمع والعمل السياسي في بلاد الشام**،مركز الدراسات العربية، /الأجنبية
- *DE LA MARTINE,**Histoire de la Turquie,** Paris, 1868.*
- *D'OHSSON, M : **Letableau général de l'Empire Ottoman,** imprimerie de Monsieur, Paris(7 tome).*